﴿كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ٩٠﴾ [الحجر: 90]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرّبط بين النّذارة النّبويّة، وبين حال المقتسمين من أهل الكتاب

جاءت الآية على طريقة التَخَلُّصِ مِنْ تَسْلِيَةِ النَّبيِّ ﷺ إلَى وعيدِ المُشْرِكينَ الطّاعِنينَ في القُرْآنِ بأنَّهُم سَيُحاسَبونَ عَلَى مَطاعِنِهِم[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ﴾: أصلُ (قسم): يَدُلُّ على تَجْزِئَةِ شَيْءٍ[2]، القَسْمُ: مَصْدَرُ قَسَمتُ كذا قَسْمًا وقِسْمَةً، وقِسْمَةُ الميراث، وقِسْمَةُ الغنيمة: تفريقهما على أربابهما، والنَّصيبُ قِسْمٌ بِكَسْرِ القافِ، فأمّا اليَمينُ فالقَسَمُ، وهيَ الأيْمانُ تُقْسَمُ على أوْلياءِ المَقْتولِ إذا ادَّعَوْا دَمَ مَقْتولِهِم على ناسٍ اتَّهَموهُم به[3]، ويُقال: فلانٌ مُقَسِمُ الوجه، وقَسيمُ الوجه، أي: صبيحه، والقَسامَةُ: الحُسن، وأصله من القِسمة، كأنَّما آتى كلّ موضع نصيبه من الحُسن فلم يتفاوت[4]، والمقصود بالمُقْتَسِمينَ في الآية: افْتِعالٌ مِنْ قَسَّمَ إذا جَعَلَ شَيْئًا أقسامًا، وصيغَةُ الافتِعالِ هنا تَقْتَضي تَكَلُّفَ الفِعْلِ، والمُقْتَسِمونَ يُرادُ بِهِم جَمعٌ مِنَ المُشْرِكينَ من قُريشٍ[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

العذاب مُقرَّر على المقتسمين لكتاب الله

بيَّن اللّه ﷻ تلقي المشركين للقرآن العظيم، فقال: وأنذِرْ قومَك عذابًا مثلَ العذابِ الَّذي نزلَ على الَّذين اقْتَسَموا القرآنَ[6].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/84.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قسم).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (قسم).
(4) الراغب، المفردات: (قسم).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/85.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 14/128، والواحديّ، الوجيز، ص: 598، وابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/374.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ التّشبيه بالكافِ، في سياق الآية الكريمة:

التّصوير بالبيان والمعاني، إثراء للدّلالات المخبوءة في السّياقات

عبّرَ بأداة التّشبيه الكافِ دونَ غيرِها للإشعار بأنَّ المشبَّه مخبرٌ عنه بلحوقه بغيرِه، أي: بالمشبَّه به، وللتّنبيه على توافق الصّفات، أي: تشبيه صفة إنزال الكتاب على رسول اللّه ﷺ بصفة إنزال الكتاب على رسلِ المقتسمين من أهل الكتاب، أو على جهة تشبيه صفة الإنذار بالعذاب بصفة إنذار الذي أنزلنا على المقتسمين.

بلاغة التّشبيه في الآية:

ذمُّ اقتسام القرآن بالإيمانِ ببعضِه والكفرِ ببعضِه وتهويلُ أمر الطّعن فيه

يحتمل أن يكون المشبَّه هو الإيتاءَ المَأْخوذَ مِنْ فِعْلِ ﴿ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي﴾، لأنَّ الإيتاء بمعنى الإنزالِ، والتقدير: آتيناكَ إيتاءً كالَّذي أَنْزَلْنا أَوْ كَإِنْزالِنا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ، والمعنى ولقد آتيناك ونزلنا عليك القرآن مثل ما أنزلنا على أهل الكتاب وهم المقتسمون الذين جعلوا القرآن عضين، ويكون قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ اعتراضًا بما هوَ مَدَدٌ لِمَعْنَى التَّسْلِيَةِ مِنَ النَّهْيِ عَنِ الِالْتِفاتِ إلَى دُنْياهُم والتَّأسُّفِ عَلَى كُفْرِهِم، ومِنَ الأمرِ بأنْ يُقْبِلَ بِمَجامِعِهِ عَلَى المُؤْمِنينَ، ويَجوزُ أَنْ يَكونَ الْمُشَبَّهُ الإنْذارَ المَأْخوذَ مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي: أنذركم إنذارًا كإنذار الذي أنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين، ليفيد شدَّة الإنذار على المقتسمين من مشركي مكّة وغيرِهم، أو أنذركم عذابًا كالعذاب الذي أنزل على المقتسمين[1].

دلالة (ما) في سياق الآية الكريمة:

توصيف حال المقتسمين الّذين جعلوا القرآن عضين، وعواقب ذلك

تحتمل (ما) أن تكون اسمًا موصولًا وهو الظّاهر، وعبّر بـ (ما) دون الذي للإشارة إلى تهويل ما أنزل اللّه على المقتسمين الذين

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/589، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/217، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/459.

جعلوا القرآن عضين، كما تحتمل (ما) أن تكون مصدريَّة والتّقدير: كإنزالِنا على المقتسمين.

سببُ ذكرِ الإنزالِ دون الإنذار، في سياق الآية:

تعظيم إنذار الكافرين وتهويله

قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ﴾، على القولِ بأنَّ المشبَّه هو الإنذار يكون سبب ذكرِ الإنزال دون الإنذار لتعظيم الإنذار بذكر تنزيلِه عليهم على معنى تمكّنه منهم وإحاطته لهم؛ لأنَّ الإنزال لا يكون إلّا من علوٍّ، وأكَّد هذا التمكّن تعدية الفعل بـ﴿عَلَى﴾.

نكتةُ بناء الفعل للفاعل الّذي هو ضميرُ العظمة:

تعظيم شأنِ المنزَّل لعظمة المنزِّل

عُبِّرَ بصيغة الفعل المبني للفاعل للإيذانِ بأنَّ المنزِّل هو اللّٰه تعالى، للبيان والإيضاح، وهو مناسب لما وصف اللّٰه تعالى به رسوله الكريم في الآية التي سبقت في وصفِه بالإبانة في النذارة، ولمّا أسند الفعل إلى ضمير العظمة دلَّ على أنَّ مثل هذا الإنزال لا يكون إلا من الملك الواحدِ الأحد، وفيه تعظيم للمنزَّل.

بلاغةُ إقامة الصّفة مقام الموصوف، في قوله ﴿ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ﴾:

الطّاعنون في القرآن كثير وأشدّهم قبحًا المقتسمون

لمّا ذكر الصفة وحذف الموصوف في قولِه: ﴿عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ﴾ فلم يقل: (على الكافرين المقتسمين) مثلًا دلَّ على عظم قبح الوصف بحيث استحق أن يقوم مقام الموصوف في الإخبار عنه، وكأنَّهم كانوا مشهورين بهذا الوصف القبيح حتَّى صار علَمًا عليهم، فبعض الأوصاف لشدّة قبحها إذا فعلها صاحبها مرَّةً أو مرَّتين صارت علَمًا عليه، فكيف بتكرّر وصف الاقتسام للقرآن بأن جعلوه عضين، ففرّقوا القول فيه؟!.

نكتة التّعبير بصيغة الافتعال في قولِه ﴿ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ﴾:

التكلُّف والتعسُّف في محاولاتهم تفريق القول في القرآن

صيغة المقتسمين مأخوذة من قَسَّمَ إذا جَعَلَ شَيْئًا أقْسامًا، وصيغَةُ الِافْتِعالِ هُنا تَقْتَضي تَكَلُّفَ فعلِ الاقتسام، بمعنى أنَّهم جعلوه أقسامًا، بتفريق القولِ فيه، وهو في الحقيقة غير ذلك[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/85.

بلاغةُ الإجمالِ بقوله ﴿ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ﴾ قبل التبيين:

تشنيع فعلهم وإلهاب مشاعر المخاطب إلى معرفة جرمهم

في ذكر المقتسمين بوصفِ الإجمال ثم بيانهم بالصفة في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ٩١﴾ فلم يقل: كما أنزلنا على الذين جعلوا القرآن عضين، لتشنيع فعلهم، وإلهاب مشاعر المخاطبين إلى معرفة جرمهم وصنيعهم، ولتعظيم شأنِ الطّعن في القرآن من هذه الجهة، وللإشارةِ إلى أنَّه ينبغي التنبّه لمثلِ هذا الطّعنِ.